مجلة الرائد

العدد :٢٠٣ الموافق في جمادى الأخرة ١٤١٩ هجري ١٠/١٩٩٨ ميلادي

| عنوان المقال : مقدمات عقلية لا بد منها | بقلم : رشيد أبو أسامة |
|---|---|

ما إن أنهى الأستاذ الزائر كلمته خلال درس عام في المسجد حتى وجهت إليه جملة من الأسئلة - التي لا ترتبط بموضوع الدرس - حول بعض القضايا الفقهية الخلافية . وهي نفس الأسئلة التي تطرح على كل زائر جديد للمسجد . وغالباً لا يريد السائل من ورائها معرفة الحكم الشرعي للالتزام به ، بقدر ما يرغب في سماع الإجابة التي تعضد موقفه الخاص حول هذه القضايا الخلافية ، ليثبت بذلك للجميع أنه على حق وغيره على باطل .

لا شك أن الجميع حريص على الالتزام بالسنة وعلى تبني الرأي الذي يرضي الله تعالى ، غير أن إصرار كل طرف على ألا يكون في هذه المسائل الخلافية إلا رأي صائب واحد يؤدي إلى الفتنة والتفرقة واتهام الناس في نواياهم ؛ بل قد تشكل هذه العقلية - التي لا تقبل بأن يكون في القضايا الخلافية إلا الرأي الذي تعتبره من زاويتها صائباً - خطراً على المستقبل الإسلامي .

من المعروف تاريخياً أن نهضة الأمم لا تتم إلا بعد نهضة فكرية تؤسس للنهضة الحضارية ؛ ولن تتم النهضة الفكرية إلا إذا سادت في المجتمع عقلية تحسن التفاعل مع التجديد والتنوع . ولعل العقبة الأساس في وجه أية نهضة فكرية هي العقلية المنحصرة في ثنائية " إما أبيض وإما أسود " التي تصادر حق الآخر في أن يكون له رأي مخالف ، حيث لا تستطيع أن ترى في دائرة البياض إلا لوناً واحداً ، ولا تقبل ضمن دائرة الحلال أكثر من وجه ، بل ولا تقبل ضمن دائرة الفكر إلا مقاربة واحدة ؛ لذا لن يجدي الإبداع في الاجتهاد والتجديد اللازمين للنهوض إذا لم يكن الناس على استعداد لحسن التفاعل مع الاختلاف والتنوع .

والمتمعن في سيرة الرسول ﷺ ، التي تعتبر مقياس الاقتداء ، يقف بسهولة على العناية التي خصصها ﷺ لتكوين العقلية التي تتفاعل إيجابياً مع الاختلاف والتنوع ، باعتبار أن الرسالة العالمية الخاتمة تتجافى مع التنميط والرأي الواحد . ولعل هذا الحدث والحديث اللذين أخرجهما أبو داود والنسائي بليغا الدلالة في هذا المضمار .

عن أبي سعيد قال : خرج رجلان في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء ، فتيمما صعيداً طيباً وصليا ، ثم وجدا الماء في الوقت ؛ فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ولم يعد الآخر . ثم أتيا رسول الله ﷺ فقال للذي لم يعد : " أصبت السنة وأجزأتك صلاتك " ، وقال للذي توضأ وأعاد : " لك الأجر

مرتين ".

لا شك أن العقل المنحصر في ثنائية اللونين كان يتوقع أن يقول رسول الله ﷺ للذي أعاد صلاته بعد أن توضأ : " لقد أحدثت بدعة " ما دام قد قال للآخر : " أصبت السنة وأجزأتك صلاتك " ، لكن جواب رسول الله ﷺ يثبت بجلاء أن الحلال ألوان متعددة ، وكذلك البدع ، بل وحتى المحرمات ليست على نفس الدرجة من الشر .

أما قصة صلاة العصر ببني قريظة فتفيدنا معاني أخرى :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ يوم الأحزاب : « لا يصلين أحد العصر إلا ببني قريظة ! » فقال بعضهم : « لا نصلي حتى نأتيها » وقال بعضهم : « بل نصلي ، لم يرد منا ذلك » فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم [صحيح البخاري].

لا شك أن الرأي الثاني قد يفضي إلى موقف مخالف لما شرع من توقيت للصلاة ، ورغم ذلك قبله رسول الله ﷺ ، ما دام فهماً تحتمله دلالة اللغة ، ولم يفكر ﷺ في كون إقرار هذا الرأي قد ينتج في المستقبل ، من خلال القياس ، اجتهادات من هذا القبيل ، مثلما يحتج الكثيرون اليوم لرفض ما يخالفونه من اجتهادات . ولهذه الحادثة دلالات :

أ- تعتبر صيانة حق أي مجتهد في الفهم المغاير - شريطة أن يكون له محمل من اللغة والعقل السليم السوي - أمراً أساسياً بالنسبة لرسول الله ﷺ ؛ لذا وجدناه يكافئ بالأجر حتى المجتهد المخطئ . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تشجيع الاجتهاد من جهة ، وعلى تربية الناس على الإنصاف الفكري الذي يتعايش مع الآراء المخالفة ، باعتبار الاختلاف والتنوع أمرين طبيعيين تفرضهما طبيعة اللغة ودلالة النصوص وتفاوت العقول البشرية ، وباعتبارهما كذلك ضرورتين لاستمرار الشهود الحضاري للأمة .

ب- إن الأمة " لا تجتمع على ضلالة " كما قال ﷺ فهي تملك من المناعة ما يجعلها تلفظ الفاسد ولا تحتفظ إلا بالصالح ، مما يستوجب اعتبارها راشدة وأهلاً للثقة في مناعتها التي لن تضيق ذرعاً بحرية التفكير والاجتهاد والتعبير .

جـ- لقد أحسن المسلمون الأوائل - انسجاماً مع هدي رسول الله ﷺ - التعامل الراقي مع هذه

التعددية الفكرية الخلاقة ، التي أنتجت الهديد من المذاهب الفقهية ، مما يعبر عن الحيوية والانفتاح ، اللذين كان العقل المسلم يتمتع بهما . ولقد عبر عن ذلك صحابي حين قال - أو كما قال - : " كنا نخرج مع رسول الله ﷺ ومنا الصائم ومنا المفطر ، ولم يكن أحدنا يجد على الآخر ".

وبهذا السلوك تتحول الآراء المختلفة إلى قوة للأمة ، لأنها تمثل الضمان الأساسي لوحدة الصف ، وكل محاولة لإخضاع الناس لرأي واحد ستمثل الطريق الأمثل للتفرقة والفتنة ؛ كما أن هذا الجو الذي يطبعه حسن التعايش والتسامح يمثل البيئة الضرورية للاجتهاد والتجديد الحيويين بالنسبة للنهوض الحضاري للأمة .

**خلاصة :**

قبل أن نصدر للناس الفتاوى المختلفة يجب ألا يسأم الموجهون والوعاظ والمرشدون من تلقين الناس حسن التعامل مع التعددية والاختلاف ، حتى لا تتحول كل فتوى أو رأي جديد إلى سبب إضافي لتنشيط الصراع والخصام وشق صف المسلمين ، وحتى لا تتحول العقلية المنغلقة المتحجرة داخل المجتمع إلى حاجز منيع في وجه حركة التجديد والإبداع المحركين الأساسيين لعجلة التاريخ.